

محمد فيضي الزهاوي

مفتي بغداد

هو شخصية لامعة ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري ، وهو من نادري الرجال ذوي المواهب الممتازة ، عاش قرناً كاملاً نشر فيه آلوية العلم والتدريس والإفتاء ، والأدب العربي ، إن شئت عالمًا قدامًا ، أو شاعرًا فشاعر في اللغات : العربية والفارسية والكردية والتركية ، أو مدرسًا فمدرس ، درس العلوم الإسلامية والثقافة العربية سبعين سنة ، وإن شئت فقل ففقيهًا ففقيه في الفقهين : الشافعي والحنفي . تربع على كرسي الإفتاء في الزوراء ثمانياً وثلاثين سنة ، وتخرج في مدرسته مئات علماء وفضلاء وأدباء ، بحيث تنتهي إليه سلسلة إجازات أكثر العلماء في العراق ، كما قال الشاعر السيد أحمد الزاوي الواعظ المشهور بأبي الخلق الذهب في قصيدته الرثائية التي سنقلها فيما بعد :

إذ لا ترى ذا العصر فضلاً في امرئٍ الآ ومته مسدوره في الورد

وبالرغم من هذا فقد ضنَّ عليه المترجمون ، فلم يكتبوا شيئاً عن حياته ، ولم يرووا لنا نخايج من أشعاره ، بل مات هذا الرجل الفذ ، والشعلة الوهاجة ، ونسيت أشعاره وآثاره الأدبية ، وطرائفه وظرائفه ، ونكاته المستملحة ، وحكاياته اللطيفة مع الولاة ورجال العلم والأدب .

لقد حفزني ذلك في عام ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م على أن أكتب شيئاً في حياته وألم ما يمكن له من آثاره وأشعاره ، فأصدرت كتاباً باللغة الكردية بعنوان : (مفتي زهاوي) وقع في (١٤٠) صفحة ، ترجمت به حياته ، وجمت فيه كل ما عثرت عليه من آثاره الأدبية ، وحسبي أني جمعت من نظمه أكثر من مئتي بيت نسفها بالعربية ، والباقي بالفارسية والكردية والتركية ، وطبعته في سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م ونال الكتاب بمادته استحساناً وإقبالاً من أهل الفضل والأدب . وكان عليّ أن أترجمه إلى العربية لاختواني الناطقين بالعراق لولا كثرة الأشغال

محمد الخصال

الرسومية وغيرها ، ولكن بدت الحاجة الملحة الآن الى أن يقتطع من كتابنا المذكور مقالاً واحداً وموجزاً شاملاً لا هم ما في الكتاب تنويراً للقراء السكرام ، وأداءً لبعض ما يجب علي أدائه لهذا الرجل الانساني الذي خدم العلم والدين والأدب زهاء ثلاثة أرباع قرن ، اعترافاً مني بفضله وتخليداً لذكراه .

هو محمد فيضي بن الملا أحمد بن حسن بك بن رستم بك بن كي خسرو بك بن أمير بابا سليمان ، وهذا الأمير — علي ما قاله المرحوم محمد أمين زكي في كتابه (تاريخ الكرد و كردستان من أقدم العصور) — هو ابن فقي أحمد الدارشماني ، جد الأسرة البابانية الشهيرة ، ولهذا فالفتي الزهاوي يُعد من الأسرة المذكورة .

ولد رحمه الله في بلدة (السلبيانية) سنة ١٢٠٨ هـ = ١٧٩٣ م علي ما حققه المرحوم محمد أمين زكي ، وعلي ما حققناه في كتابنا المذكور ، من أب كردي عراقي وأم كردية إيرانية من أهالي قرية (زهاو) الواقعة بين قريتي (هورين وشيخان) و (قصر شيرين) .

وأما بحسب السجل الرسمي للحكومة العثمانية ، فهو من مواليد سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م ويؤيده ما رواه المرحوم الحاج ميرزا عبد الحميد الكردي ـ الثاني الإيراني الملقب بـ (ملك الكلام) في كتابه المخطوط (سفرنامه) الذي يذكر فيه رحلته الى بغداد والحجاز ، فقد قال فيه : إنه زار في بغداد المفتي الكبير محمد فيضي الزهاوي بداره في الساعة الثامنة من ليلة الثلاثاء السادس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٤ هـ وسأله عن عمره فأجابه المفتي حالاً بقوله : (أوف ^(١)) . وأشار في ضمن هذا التألف الى عدد سني عمره بحساب الحروف الأبجدية وهو « ٨٧ » سنة ، وعلي هذا فالفتي كان من مواليد سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م وعاش إحدى وتسعين سنة لأن وفاته كانت في سنة ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م .

لقد ترعرع المفتي في أحضان والده بالسلبيانية ، ونشأ في أيام الإمامة البابانية ، وأقبل علي

(١) هذه الكلمة تكتب ويتلفظ بها هكذا في اللغة الكردية ، أي بالألف والواو والنساء لا بالألف

والفاء كما في العربية .

محمد فيضي الزهاوي مفتي بغداد

العلم في سنه ، فدرس القرآن الكريم والفارسية ومبادئ النحو والصرف والفقه واللغة على والسنه .

وبعد أن توفي والده ، وبلغ هو أشده ، وثبتت في ميسادى العلوم العربية قدمه أنتمثل إلى مدرسة العلامة (الشيخ معروف النودهي)^(١) بالجامع الكبير بالسليمانية ، وبقي عنده ودعاً من الزمن أخذ فيه عنه أسرار العلوم العربية من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، والمروض والفقه ، وأخذ عنه هوى الشعر ووحى الأدب .

ثم سافر إلى مدرسة الإمام الكبير (الشيخ عبد الله الخرياني)^(٢) في حلبجة وبقي فيها مدة من الزمن ، حضر في أثناءها حلقات درس الشيخ ، وأخذ عنه علوم التلويح والفقه وأصول الفقه .

ثم رحل إلى (سنه = سنج) في كردستان إيران ، ونزل في مدرسة أستاذ الكل (الشيخ محمد قسيم المردوخي)^(٣) وقرأ عنده علمي الحكمة والكلام ، واغترف من معين علمه وفضلته .

(١) ولد في قرية (نوده) بلواء السليمانية سنة ١١٦٦ هـ - ١٧٥٢ م وتوفي بهاسنة سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م وكان عالماً بارعاً وشاعراً بليغاً في الكردية والفارسية والعربية وله أشعار رفيقة وقصائد رنانة ، وله من المؤلفات العلمية والأدبية والمؤلفات ما يفيد على ستين مؤلفاً .

(٢) هو الشيخ عبد الله بن الشيخ إسماعيل بن الشيخ محمد بن الشيخ جاني من سادات النكية بقره داغ ، ولد له الله في سنة ١١٩٠ هـ - ١٧٧٦ م وتوفي في سنة ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م في قرية (خرياني) بقضاء حلبجة . كان - رحمه الله - عالماً جليلاً من بيت علم وفضل ودين وسيادة ، له تعليقات مفيدة على (تحفة المحتاج : شرح المنهاج) لابن حجر الهيتمي في الفقه الشافعي وعلى (جمع الجوامع) في أصول الفقه ، وكان مدرساً في الجامع الكبير بحلبجة ، وبعد أن هاجر مولانا خالد النقشبندى إلى بغداد وترك السليمانية نهائياً عين الشيخ عبد الله مدرساً للنكية المالكية بالسليمانية سنة ١٢٣٥ هـ - ١٨١٩ م وبعد ثلاث سنوات تركها ورجع إلى حلبجة ، وكان يدرس فيها شتاءً ، وفي قرية خرياني صيفاً . عاش رحمه الله نحساً وتسعين سنة ، ونشر لواء العلم والتدريس زهاء ثلاثة أرباع قرن . ومن تلامذته مولانا خالد النقشبندى ، وملا عبد الرحمن النودهي وابنه ملا أحمد المفتي النودهي ، وملا صادق العلويل (نسبة إلى قرية طويلة) وملا خضر التالبي ومشتاقته غيرهم - رحمه الله - .

(٣) المردوخي أسرة قديمة معروفة بالعلم والتميز والدكاء ، ينبغ فيهم علماء وفضلاء حكيمون كانوا

ثم سافر الى (سايلاغ = ساوجيلاغ) السيام حالياً (بمهاباد) ، ونزل في مدرسة الإمام
الملا محمد الشهير ابن الرسول الذكي ^(١) وورد ينبوع علمه ، وأخذ عنه العلوم الرياضية من
الجبر والحساب والهيئة والهندسة ، ثم أخذ عنه الأجازة العلمية .

رجع المفتي الزهاوي إلى مسقط رأسه السلطانية وتصدى للتدريس فيها ، فبين مدرساً في
مسجد الشيخ عبد الكريم البرزنجي ^(٢) الذي كان مولانا خالد القمشبندي مدرساً فيه سابقاً ،
وبعد أن اشتغل فيه بالتدريس مدة من الزمن عزم على ترك السلطانية ، تاركاً منصب التدريس
فيها ، فسافر إلى كركوك وعين مدرساً في جامع (المسلم) وذلك في حدود سنة ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م

ساكنين في بلدة سنندج وتواحيها ، منهم العلامة الشيخ محمد قسيم هذا أستاذ مولانا خالد القمشبدي المتوفى
سنة ١٢٣٦هـ = ١٨٢٠م ومنهم أخوه الشيخ سعيد وأبناؤه العلماء الأربعة الكبار وهم : الشيخ عبد القادر
المهاجر شارح تهذيب السكلام ، والشيخ محمد وسيم وعبد جسيم وعبد نسيم . ولهم آثار وتآليف كثيرة في علمي
الحكمة والسكلام ، ومنهم ابن عمهم الشيخ طه حفيد الشيخ قسيم المذكور المهاجر إلى بغداد بعد البيت
النسوي فيها ، ولقد هاجر قسم من المردوخيني أوائل القرن الحادي عشر إلى (قرداغ) في لواء السلطانية ، ومنهم
الشيخ عبد المطلب الكبير صاحب المؤلفات الشهيرة والنظم الرائقة ، وأعقبوا هناك علماء وفضلاء في كل
علم وفن .

(١) ولد في قرية جوارنا مركز قضاء شهر بلزار بلواء السلطانية سنة ١١٨٦هـ = ١٧٦٧م وتوفي
سنة ١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م في (سايلاغ) ، قال المفتي الزهاوي : كانت العلوم الإسلامية ككرة بيد ابن الرسول
يديرها كيفما أراد ، له مؤلفات كثيرة ، منها شرحه على (أشكال التأسيس) في الهندسة ، ومنها حاشيته
المدونة على (الجيني) و (البرجندي) في علم الطب ، ومنها رسالتان في الجبر والهندسة ، ومنها حاشيته
المدونة على (السيلكوتي) وحاشية (الحياي) في علم الكلام المطبوعة في استانبول سنة ١٢٠٢هـ = ١٨٨٤م ،
ومنها حاشيته المدونة على تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي ، ولوالده رسول الذكي أيضاً حاشية مدونة على
التحفة ، وعندي نسخة من هاتين الحاشيتين المخطوطتين ، وتوجد في مكتبي نسخة منها مدونة تعليقات كل من
العلامة الملا يحيى الزوري والسيد بابا رسول البرزنجي عليها أيضاً .

(٢) هنا الفاضل كان من أجلة علماء السلطانية ، ولد في قرية (برزنجي) في حدود سنة ١١٤٠هـ =
١٧٢٧م وتوفي سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٨م في السلطانية ودفن في القبرة المشهورة باسمه ، قرأ عليه جماعة من
الفضلاء ، مثل ملا إبراهيم البياري والسيد علي البرزنجي قاضي السلطانية ، ومولانا خالد القمشبندي وغيرهم ، رثاه
مولانا خالد بنصيدة فارسية بلغة نشرت في ديوانه المطبوع .

محمد فيضي الزهاوي مفتي بغداد

وبقي هناك الى سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م .

وفي سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م سافر إلى بغداد ، وانصل بوالها علي رضا باشا فرأى الوالي فيه شخصية ذكية لامة ، واسعة الاطلاع لم يشهدا من قبل ، وكان قد بلغه سابقاً صيته في العلوم والآداب ، فدعاه إلى مدينة السلام بغداد ، ووافق على ذلك المفتي ، وكان وروده إليها في أواخر سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م واجتمع بملائها وأدبائها ، وحل في قلوبهم محل صويدائها ، قال الأخرس^(١) الشاعر المشهور عند نقائه المفتي المذكور حين وروده بغداد :

أرى في لفظ هذا الشهم معنى ينسبني عن مدى علم عظيم
ومها زدته نظراً بفسكري رأيت نهاء فسطاس العلوم

ثم عين مدرساً رسمياً في المدرسة العلية ببغداد ، ومما يؤيد ذلك ما كتبه المفتي بخطه في ظهر كتاب (تحفة المحتاج) لابن حجر المخطوط المحفوظ حالياً في مكتبة الملا محمد سعيد الدهلزي بالسليمانية : (لقد وفقتُ - والحمد لله - على تفرقة (كفا) هذا الشرح وتصحيحه الا ما زاغ عنه البصر. وزل عنه النظر ، فاقدم قبل : أبي الكتاب أن يُصحَّح ، وأنا الفقير اليه عز وجل محمد الشهر الزهاوي المدرس بالمدرسة العلية) .

ثم تصدر للتدريس فصار رئيس المدرسين في بغداد سنة ١٢٦٦ هـ = ١٨٤٩ م وكان له قبول حسن عند رجال الدولة وعند العلماء والأدباء ؛ ثم وُجسه اليه منصب الإفتاء بالزوراء في مذهب الامام الأعظم سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م في عهد الوالي رشيد باشا ، وذلك بعد أن استقال المفتي السابق السيد محمد أمين الزند ، وكان الزهاوي شافعي المذهب ، وفي ذلك قال شاعر المراق المشهور عبد الباقي العمري^(٢) مهتماً المفتي الزهاوي بالافتاء :

(١) هو عبد الغفار بن عبد الواحد بن وهب ، ولد في الموصل سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٠ م وتوفي بالبصرة سنة ١٢٩٠ هـ = ١٨٧٣ م ، وله ديوان شعر مطبوع .

(٢) هو ابن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلية ، ولد سنة ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩ م وتوفي في بغداد سنة ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م وله ديوان شعر مطبوع .

قد قيل لي :- إذ رحتُ أنشد عند ما
شاهدتُ دينَ محمد يتجدد -
في مذهب النعمان بأثوراء قد
أفتى الإمام الشافعي محمد
وقال عبد الباقي أيضاً مهنثاً إياه :

تأله ما غلط الأمين محمد
عن منصب الافتاء باستغفائه
لكن رآك به حربياً فالتجأ
لنزوله بالطسوع من إفتائه

بقي المفتي الزهاوي في منصب الافتاء ثمانياً وثلاثين سنة إلى أن توفي رحمه الله .

إن المفتي تأثر تأثراً خاصاً بزعة أستاذين من أسانذته كانت لكل منها زعة خاصة . أولها
الشيخ معروف النودهي ، فقد كانت له زعة أدبية فائقة وأدت نزعتَه هذه إلى نظم أكثر
العلوم ، ونظم أسماء الله الحسنى ، ونظم أسماء أصحاب (بدر) وإلى تحميس كثير من القصائد
المشهوره (كالبردة) و (الممزبة) و (الضربة) للبوصيري و (بات سعاد) لكعب بن زهير ،
و (لامية المعجم) للطبرائي وغيرها .

وثانيها الشيخ محمد قسيم المردوخي السندجي ، فقد كان هذا الشيخ مع جميع علماء هذه
الأسرة الشريفة ، كأخيه الشيخ سعيد وأبنائه ، مولعين بصورة خاصة بعلمي الحكمة والسلام ،
فانهم مع تبجرهم في جميع العلوم الإسلامية كانوا ميالين إلى هذين السليين ومهروا فيها بحيث
انحصرت تأليفهم فيها . أفتبس المفتي زعة أدبية من شيوخه الأول ، فكان المفتي شاعراً
وتأثراً ، وأديباً ولسوبياً كما قال :

لو بحسب الحسب الر... علا فوق معالي كنت بالعلم وبالش... ر على العالم عالي
وأفتبس زعة كلامية من شيوخه الثاني ، فكان عالماً كلامياً ، ومجادلاً قوي الحججة ، عظيم
البرهان ، ذكي الجنان ، لا يلحقه فيها الا القليلون ، وإنه ما ناقش أحداً إلا أخممه ، ولا جادل
عالماً إلا أزمه ، كما قال :

فكري دقيق في المعلوم لأنه دارت عليه رحي الجدال سنيماً^(١)

واقتبس باقي العلوم الاسلامية من شيوخه الآخرين باتقان وإيمان ، فكان يجمع روافد علم
وخزانة أدب .

وبالجملة كانت نشأة المفتي في كردستان بلاد العلم والدين والأدب ، وأخذ العلم والأدب عن
رجالها المعروفين ، وتثقف بالثقافتين العربية والفارسية ، وعرف لغتها وأسرارها فحفظ منها أشياء
كثيرة ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب والفرس وحوادثها حتى صار
علماً من أعلامها ودعامة من دعائم آدابها ، ومع هذا فلم يكن منقطعاً للشعر والأدب حسب بل
كان يشتمل بتدريس المعلوم والافتاء والتحقيقات العلمية كما ذكرنا سابقاً .

إن المفتي لم يكن يميلُ بقرض الشعر إلا إذا جاشت في نفسه العاطفة القوية ، وسنح لذهنه
المخاطر اليديع ، ومما سما بشعره وزاد في بهائه وإشراقه أنه لم يكن ينظم الا لنفسه ، ولا يترجم
إلا ما يختلج في صدره ، لذا كان شاعراً مقلداً يقتصر أكثر الأحيان على بيت أو بيتين أو ثلاثة
أو أربعة ، إما بالعربية وإما بالفارسية وإما بالكرديّة وإما بالتركية ، اللهم الا أن تبعث بعض
الأسباب الى التطويل فكان يطيل نوعاً ما ، ومن أطول قصائده التي عثرتُ عليها ما نظمها في
رثاء الملا سليمان الخضري^(٢) سنة ١٢٦٠ هـ = ١٨٤٤ م وكتبها الملا عبد الله ابن الملا سليمان في
ظهر كتاب المطول المخطوط المحفوظ حالياً في كركوك في مكتبة الرحوم الملا علي حكمت . يقول
الملا عبدالله قبل كتابة القصيدة : (من بنات أفكار الفاضل اللوذعي محمد فيضي أفندي الزهاوي
المدرس ببغداد مُد ظله في صريّة والذي الرحوم الملا سليمان التوفي سنة الف ومائتين وستين ، رحمه
الله . ثم كتب في آخرها : حرر بقلم الحقير الأثيم عبد الله الخضري المدرس بقورية كركوك
سنة ١٢٦٠ هـ) وهذا هو أصل القصيدة :

ألا إنما الدنيا سجيتها العدرُ فليس لغرور بزخرفها عذرُ

(١) في الجمع بين الدقيق والرحي والدوران مراعاة النظر .

(٢) خضر : اسم قرية في ناحية (سهانكاو) في قضاء جم جمال بلواء كركوك .

محمد الخصال

فظواهرها ود وبالطنها قلباً
 وورغبتها غيً ورهبتها هدىً
 وعزتها ذلً وفرحتها أسىً
 وإن سالت لا ينلم الناس بأسها (١)
 نوالي وتولي النيل مطهراً وبه سده
 هواها سي الألباب وهي قبيحة
 مع القبح عمر الحماطين صدأ قها
 مكارها أضعاف ما يُشتهى بها
 فحسوسها في الباطن الجوع والظما
 سمعنا بأن الحق صمٌ مذاقسه
 ومشعومها نقي وبشع مذوقها
 واشكو بما ليست بدار قرارنا
 فأسميد بمن عنها ترحل سالفنا
 وبدل بالفاني الخلد باقيا
 كما ارتحل المولى سليمان ذلك الـ
 بطول بقاه لم يقصر من التقى
 ويشتاق أن لا تغرب الشمس هائما
 وأعلى تصور الخلد أولى بمؤمن
 كبطن الثرى نخر على ظهره بما
 ورق له حزناً فلو كان ناطقاً

وإدبارها خير وإقبالها شر
 وطالبها عبدٌ وهاربها حر
 ومحتسبها سقمٌ وثروتها فقر
 تزور بأحيانٍ وفي الخصال تزور
 تعودُ تمادي قبل أن يأتي العصر
 نعم ما لها حسنٌ ولكن لها سحر
 ذاهي بالتحسنا ولم ينلها (٢) المهر
 فضعف القوى نفعٌ وقوتها ضرر
 وملكوسها في الظاهر البرد والحرق
 وعيش الدنيا مع أنه باطل صم
 ومبصرها نكر ومسموعها هجر
 قراءة أكناف فشكوتنا شكر
 من الباقيات الصالحات لها ذخر
 له آجلاً أجر وفي العاجل الذكر
 تقى التقى الزاهد العابد الصبر
 تقوم لياليه تصوم له الشهر
 ويكره في الإحياء أن يطلع الفجر
 له طال في التقوى وفي الطاعة العمر
 غدى ثأوباً في بطنه ذلك الصدر
 رثاه بما لم يرث صخر به الصخر

(١) المجلة : الصحيح « من بأسها » إلا أن باب فرح كثيراً ما يتعدى بحذف حرف الجر .

(٢) المجلة : هكذا ورد . وقد أراد تضمين « ومن يخطب الحسناء لم ينلها المهر » .

وفي لي البكا في رزته وأمدني
ولو لم يحنني الصبر مت خيالة
خابلي هل قام القيامة إنني
وأن ضياء الشمس في قلبها لظي
فجاءت بدخان له الشمس سكورت
وأن تكون الأرض ثابتة رجفة
وإن بكت الأرض السما في بكاهما
وعاد غزير الدمع منسا دماً نعم
لئن فات وهو الورود فابناء سما
أعيدها أن يجسزعا لوفاه
سقت رحمة الرحمان قبره دائماً (١)

ليسالي لم ينصر ولم يصبر الصبر
نخذلان سبري في مصيته نصر
يخيل لي أن السماء يهسا فطر
وأن نجوم الزهر في كبدها جر
كما انكدرت فيها به الأتجم الزهر
وأن الجبال الراسيات لها صر
فأعينها تجري وأدممه قطر
إلى النار يوم الحشر يتقلب البحر
لنساء، ذلك الورود بعمه والمطر
فبالصبر في القرآن قد علق الأجر
وأنسه في لحده الغفر والغفر

وله قصيدة عربية في رثاء إسماعيل باشا والي (شهرزور) المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ ذكر منها في

كتاب (صفحات خالدة من الأدب العراقي) عشرة أبيات فقط لا حاجة إلى إيرادها هنا .

إن المفتي كما كان شاعراً في الرثاء والمدح والتعريض ، كذلك كان شاعراً في المناجاة ،
والفلسفة ، والإباء ، والنقد لبعض الأحوال الاجتماعية ، والفراق ، والدم ، والشكوى ،
والداعبات ، بل في أكثر المعاني المروقة ، والأغراض المألوفة . فمن مناجاته في بعض خلواته
قوله :

يا رب تاهت في ثناك عقول
ما ذا عسى فيك المقول تقول
إن الوجود ثني (٢) عليك بأمره
فتناء أهل الفضل فيك فضول
ومن أشعاره في الفلسفة قوله :

(١) الجملة : مكنا ورد الشطر مكسوراً .

(٢) الجملة : مكنا ورد والصواب « أني » .

نحمد الخصال

وفواراة تروي عن الماء شيخها

لَمَنْ يَتَعَدَى الطَّوْرَ مِثْلِي مَبْتَلِيَّ

حديثاً صحيحاً مسنداً ومعتمداً (١) :

بذل ونكس ليس يسلم من عنا

ومنها قوله :

آن أوانُ أن يصير راحلاً

يمشي على الأربع يمشي عاجلاً

من صار يمشي بالمصار من كبر

أعني الذي على ثلاث أرجل

ومنها أيضاً قوله :

مُعْظَمُ خَلْقِ اللَّهِ فِيهِمْ مَعْرُزٌ

لهذا تمحذى بالعيسون الناظر

أي إن الذي ينظر إلى المخلوقات ينظر الاحترام سوف يلاقي منهم الاحترام ، ألا ترى أن المنظار يُحترم دائماً ويوضع على العيون لأنه يعظم الأشياء ويكبرها . وعندي أن هذا المعنى

(١) الفواراة : منبع الماء ، وهي بحسب العرف أنبوب ينصب في وسط الحوض مرتفعاً عن سطح الماء

لسكي بغور منه الماء ساعداً . تروي : بالفتح من روى الحديث رواية نقله ، والرواية نقل الخبر عن العدول

حتى ينهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابي رضي الله عنه . الراوي : الذي يروي الحديث عن

غيره كالشافعي يروي عن مالك رضي الله عنهما . الشيخ : الذي يروي الحديث لغيره أو يلقبه عليه . الحديث :

قول النبي أو نقله . الصحيح : من الحديث ما اتصل بسناده بأن يكون كل من رجاله سمع ذلك المروي منها

روي عنه وأن يكونوا سلكهم من الدرجة الأولى في العدالة وال ضبط ، وأن لا يكون فيه شذوذ ولا إعلال .

المعز : هو ما أضيف إلى النبي بذكر روايته . المعنن : ما دخل في إسناده كلمة (عن) ، ثم إن في الجمع

بين الحديث والرواية والشيخ والصحيح والمسند والمعتمد مراعاة النظر ، كما أن في كلمة (تروي) ليهمام

التناسب ، ذلك لأنها وقعت بين كلمتي (الفواراة) و (الماء) وهو الأمر الذي يوهم في بادئ الأمر أنها بالضم

من الأرواء المناسب لسابقه وللاحقه ، ومن البديع أن في آخر البيت الثاني مع آخر البيت الأول جناساً ملفقاً .

ويعجبي في وصف الفواراة ما قاله الشاعر (عبد علي) ابن ناصر الشهير بابن رعة المويزي في كتابه الكبير

المخطوط : (السيرة المرضية) الموجود بخطه في مكتبي ، الذي يبحث عن الموائد التاريخية والوقائع الجارية

في عهد والي البصرة علي باشا ابن أفراسياب باشا من سنة ١٠٣٣ هـ إلى سنة ١٠٥٣ هـ ويلقب الضوء على

عشرين سنة من الفترة المظلمة في أهم جزء من أجزاء العراق حيث قال :

رأيت فواراة في منزل خسرب

نذري الرياح إذا هبت مدامميساً

هبها بكفه أسى لكن مقلتها

تسكي عليه بكاء العاشق التمس

عليه حتى تروي الأرض بالبلبل

(لولا الهوى لم ترق دمعاً على ظلل)

غير مسبوق إليه .

ومنها أيضاً قوله :

قد حُرم الأُملاك نيل خلافة فإلهم ذنب سوى عدم الذنب

ومنها أيضاً قوله :

حفيدنا من أبنينا أحبُّ الإبن قشر والحفيد لبُّ

ومن أعلامه في نقد بعض الأحوال الاجتماعية قوله في صورة الارشاد والموعظة مع شيء

من الاقتباس :

لا تدعُ في حاجة بازاً ولا أسداً الله ربك لا تشرك به أحداً

يتبين من هذا البيت أن المفتي كان موحداً من أعماق قلبه بحيث لا يشوب إيمانه أدنى شائبة

من شوائب الاستغاثة بغير الله .

والفتي كثير من الأعلام في نقد بعض الأحوال الاجتماعية وخاصة في قصيدته الفارسية

وباقى أعلامه الأخرى التي أوردناها في كتابنا السكودي (مفتي زهاوي) فلنجزئ هنا

بهذا القدر .

يستنتج من هذه القدمات أن المفتي كان متأثراً بحيطه الذي عاش فيه ، وكان ناقماً على بعض

الأحوال الاجتماعية وربما بها وذلك مما جعله يشيب قبل أوانه ، كما قال مع شيء من الاقتباس :

شيبَ رأسي في شبابي لا تمدوه نجيباً إن هذا اليوم يوم يجمل الولدان شيباً

وجمله بمعنى الموت لكي يتخلص من هذه الدنيا الملائى بالنقص والأكدار .

والفتي كثير من الأعلام الفرامية الرقيقة تمتاز بجمان رائقة ، وألفاظ موسيقية ، وله أعلام

في الطمن ، وأسلوبه فيه أسلوب حاد صريح ، فمثلاً يقول في الطمن على العالم الكبير (نصيرالدين

الطوسي) صاحب كتاب (التجريد) في علم الكلام :

يا جامعاً بالسوء حسن كتابه هلا خشيتَ عليك سوء الخاتمه

جمع النصير الحسن في تجريده لكنه بالسوء أمسي خاتمه

ومن مداعباته أن الثلج أخذ يتساقط في الليلة التي كانت تسقط فيها الجرة الثالثة وفي صباحها قال المفتي مداعباً :

قالوا لها قد أسقطت جراتها صدقوا وهذا الثلج بعض رماها
والمفتي أشعار كثيرة أخرى قالها ارتجالاً بمناسبة خصوصية ، منها أن ابنه
جميل صدقي الزهاوي الذي كان يحبه حباً جماً لكونه ذكياً وأديباً ومنكثاً ، ولكونه أصغر
أبنائه ، ترك مجلس والده مدة من الزمن ، وكان يتردد الى مجالس جماعة من ذوي الشخصيات
الأخرى ، فتأثر المفتي من ذلك ، وكتب اليه مرة بيتين فارسيتين ذكرتاها في الكتاب الكردي .
ومنها أنه قُتل في بغداد القاضي الثاني المدعو (نجم الدين) ضجوة نهار الثلاثاء الحادي عشر
من ربيع الأول سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م وقد أحدث قتله ضجة عظيمة وأسفاً عميقاً في جميع
أوساط بغداد ، وذهب المفتي الى مجلس الفاتحة ، فقال عند دخول المجلس :

يا له من نجم سمد أفلا أفلا نبكي عليه أفلا ؟

ومنها قوله في جماعة من الحساد المعاصرين الذين حسدوه على ساعة ذهب أهداها اليه والي
بغداد (مدحت باشا) مع الاقتباس :

من ساعة أعطيتها قد زلزلوا « زلزلة الساعة شيء عظيم »

إن المفتي كما كان شاعراً ، كذلك كان نائراً أيضاً ، غير أنه كان يلتزم السجع ، ومن رسائله
ما كتبه من بغداد الى العلامة أبي الثناء الألويسي في استانبول ونقلها السيد الألويسي في كتابه
(غرائب الاغتراب) بحذفها قليلاً حاجة إلى ذكرها هنا .

ومن نثره ما كتبه تقریظاً للقصيد الرائية لعبد الباقي أفندي العمري المار ذكرها ، التي
قرظها بقصيدته السابقة ، ولقد نشر هذا تقریظ في ديوان عبد الباقي .

كان المفتي متوقفاً لكاء ، متين الحافظة ، حاضر الجواب ، سريع الخاطر ، إذا نظم أطرب ،
وإذا نثر أعجب ، وكان مع الأديباء ذا فنون ، ومع الظرفاء ذا مجون ، ومع العلماء بجرماً لا يدرك
غوره وقصره ، وكان يجلس في مدرسته نهاداً ، وفي داره ليلاً ، ويضم نأديه مختلف الثقافات ،

ويخاطب جلساءه بلغاتهم ، فيتكلم معهم تارة بالعربية ، وأخرى بالفارسية ، وآونة بالكرديّة أو التركية ، فلا تجد أحداً إلا كان ما دحاً لأدبه ، ومكبراً لعلمه ، يقول (ملك الكلام) في كتابه المخطوط (سفرنامه) : « ما رأيت من العلماء أفصح وأبلغ وأجمع للفضائل من المفتي الزهاوي » . وكان يجتمع عنده العلماء والأدباء والشعراء يسرون السمر اللذيذ ، ويتحدثون الحديث اللطيف ، وكان له من الكلمات المستملحة والطرائف الأدبية والطرائف الشعرية والنثرية ما لو جمعت لكادت تروى أدبية خالدة . ولكن بالأسف كان نسيبها الضياع والتلف ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

وكما كان المفتي شاعراً وطالماً وأديباً ، كذلك كان خطيباً أرتجالياً مفرهاً ، فوي الحافظة ، متوقد الذكاء . يروي أنه عندما عُزل السلطان مراد ، وجلس مكانه السلطان عبد الحميد وردت برقية سرية بهذا الصدد إلى والي بغداد ، وعلى أثر ذلك دعا الوالي كافة الأحرار والمعلماء والوجهاء وفاجأهم بالخبر ثم انتفت إلى المفتي وطلب منه أن يلقي بهذه المناسبة خطبة ، فهض من مكانه حالاً وألقى خطبة بليغة تناسب المقام ، استهلسها بقوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » وبذلك بهت الحاضرون كأنهم لم يسموا هذه الآية السكرينة من قبل .

ويروي أيضاً أن خطيب جامع الخفافين مرض ذات مرة وكان أحد طلابه أن ينوب عنه لقراءة خطبة الجمعة ، وكان المفتي يؤدي دائماً صلاة الجمعة في الجامع المذكور ، وفي سبحة يوم من أيام الجمعة التي قرر فيها الخطيب أن يخاطب فيها بنفسه زاره عبد الباقي أفندي العمري ونهاه عن ذلك بحجة أنه بحاجة ماسة إلى الاستراحة لمدة أسبوع آخر ، فوافق الخطيب عليه ، وكان أحد الحاضرين بإعلام الوكيل ، فتعهد عبد الباقي به ، إلا أنه لم يخبر الوكيل عمداً ، وكان يقصد بذلك أن لا يحضر الوكيل فيضطر المفتي حينذاك إلى إلقاء الخطبة بصورة إضطرارية وارتجالية من دون سابق علم ، معتقداً أنه غير قادر على القيام بهذه المهمة ، وعلى أثر ذلك دعا كثيراً من الشخصيات البارزة لأقامة صلاة هذه الجمعة في الجامع المذكور ، فاجتمع فيه خلق كثير من

محمد الخال

الوجهاء والأدباء وحضر المفتي على عادته وكان غافلاً عن كل ما دبر عليه ، وبعد الأذان انتظر الحاضرون كثيراً فلم يحضر الخطيب ، وحينئذ طلب عبد الباقي من المفتي أن يلقي الخطبة تكابة به ، فكتبه المفتي ونهض حالاً وألقى خطبة ارتجالية بليغة بحث فيها عن الدنيا وزوالها ، وفي أثنائها أنشد هذين البيتين لابن العربي واستشهد بهما :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة إن كان في علم الحقيقة راق

شخص وأشباه عمر وتنقضي وتبقى جيماً والمحرك باق

وكان المفتي يشير بيده إلى عبد الباقي العمري .

على أن قيمة المفتي ليست في شعره أو نثره أو خطاباته ، بل إنما هي في علمه ، فانه كان منار العلم وعلماء من أعلامه ، نشر العلم في أوساط رقيقة ، وأرجاء فسيحة ، وأسس نهضة علمية عميقة وأذواق طلابه معنى التحقيقات والتدقيقات العلمية والفنية ، ومرتبهم على جودة الاحتراز وحل المشاكل العلمية ، بحيث انتهت اليه في بغداد رئاسة العلم والتدريس والافتاء والمناظرة ، فقد برع فيها وساد أقرانه ، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد ، وعلمه الواسع ، وسرعة الحافظة ، وقوة الإدراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد : إنه لم يكن يسمع شيئاً لا يحفظه ، ولم يكن قط يحفظ شيئاً ينساها . وله في المحافل حتى الآن مباحث مشهورة ، وفي المجالس والشاهد كلمات مأثورة .

نظر في العقليات وعرف أقوال المتكلمين ، وأحاط بأدابهم وبأسرار كلامهم ، وبرع في جميع العلوم الإسلامية ، ولا سيما علم الكلام والجدال ، وكان يفوق أقرانه ويبرز على أهل زمانه ، وقد جادل كثيراً من علماء إيران ومجتهديها ، وكان النجاح خليفه دائماً ، وكان ينصر السنة بدلائل ساطعة وبراهين قاطمة ، وكان ولاية بغداد كثيراً ما يقيمون حفلات عامة لهذه المناقشات العلمية ، وكانوا ينصبون سرادقات ويجمعون حشداً كبيراً من العلماء والأمرء والأدباء وذلك بمناسبة مجيء عالم ، وفاضل أو مجتهد إيراني إلى بغداد ليدخلوا مع المفتي في المناقشة الذهبية ، وكانت مناقشاتهم تستمر ساعات ، وكان المفتي دائماً يخرج منها ظافراً ، ولم يكن قط يخاف في الله لومة

لائم، ولا صولة سائل كما قال :

إنا نقول الحق بالمخاف ونبطل الباطل بالدلائل
ولا نخاف لومة من لائم ولا نهاب صولة من سائل

وبالرغم من هذه اللكأة العنيفة السامية والمعلومات الواسعة التي يتحلى بها المفتي ، وبالرغم من هذا العمر الطويل الذي امتد نحو قرن واحد ، فهو لم يؤلف كتاباً يلقى بحكائه الرقيقة ، وذلك لعوامل منها ، أنه كان يعتقد أنه لا جديد في الدنيا ، وأن كل ما يكتب ويؤلف تكرر محض ، ومنها ، أنه حكان يعتقد أن العلم مكنوز في خزائن الكتب ، وأن العلم هو فهم ما تركه السابقون وما على العلماء الا الكشف عن هذه الكنوز بالبحث والدرس . ومنها ، إنه كان مهتماً في التدريس وفي صرف ما وسعه لتثشة العلماء والأدباء والمدرسين ، وكان يعتقد أن تأليف كتاب من العلماء ، أي تعليمهم ، أحسن بكثير من تأليف مئات كتب تبقى مهجورة في زاوية المكتبات ، كما قال :

عاق تدريسي عن التأليف لكن ما أنا من فضل ربي متأسف
من تلاميذي ألغت كتاباً كل سطر منه في العلم مؤلف

نعم ، إن المفتي ترجم كتاب المكتوبات للإمام الرباني من الفارسية الى العربية ، وهو كتاب كثير الصفحات واسع الأبواب والفصول ، بل يجر زاخر في علم التصوف والكلام ، يبحث عن مراتب التصوف وأحوال الصوفي ويقاماته العنوية باصطلاحاتهم الخاصة وتمايرهم الرقبة الغامضة ، وقد أبدع في الترجمة أي أبدع إذ قام بترجمة النثر بالنثر والنظم بالنظم على أحسن ما يراد .

كان المفتي الزهاوي صحيح البنية ، رفيع القامة ، كبير الهامة ، واسع العينين ، عريض الصدر ، قوي الاعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل في رقصة ألفاظ ، وعذوبة كلام وفصاحة وبيان .

محمد الخليل

ولما بلغ التسعين من عمره نظر يوماً في المرآة ، فرأى فيها شيخاً طاعناً في السن رقق جلده ،
ووهن عظمه ، واشتعل رأسه شيباً ، ونحارت قواه ، عليه آثار الشيخوخة ، وعلامات الوداع
الأخيرة من الدنيا الفانية ، وتذكر بهذه المناسبة الحياة وملاذئها الصبيانية وقال :

بان لي في المرآة شيخ كبير عاش حتى تعرف الأحوال
قلت كم عشت ؟ قال تسعين عاماً قلت ماذا فعلت فيها فقلاً ؟
أكلت دفتها فضلات وشروباً أرقمتها أبوالاً
وثياباً لبستها فاخرات^(١) وجرداً ونزعتهما أسهلاً^(٢)

والحق أنه صور لنا في هذه الأبيات الأربعة لوحة طريفة ، وصورة دقيقة للحياة الدنيا .

إن المفتي عاش قرناً تقريباً ، خدم فيه العلوم الإسلامية ، والأدب العربي بشعره ونثره ، ونشر
فيه ألوية التدريس في السلطانية وكر كوك وبعداد حوالي ثلاثة أرباع قرن ، وتخرج من مدرسته
مئات العلماء والأدباء والمؤلفين والمؤرخين ، كما ولي الافتاء ، في بغداد مدة ثمان وثلاثين سنة
متوالية ، دافع فيها عن الإسلام والمسلمين دفاع الإبطال ، وجاهد في سبيل الحق ، وكافح أهل
البدع ، ولم يخف في الله لومة لائم ، فلا بدع أن قلنا إنه كان من أعلام مجدي القرن الثالث
عشر الهجري في التدريس والافتاء ونشر الثقافة الإسلامية ، ولم يزل في هذه الخدمات العظيمة
حتى ناهز المائة وأقدمه الدهر الذي لا يرحم أحسداً ، وفي آخر أيام حياته أصيب بوعكة ألت به
أياماً قليلة ، وفي ليلة الاثنين ثالث جمادى الأولى سنة ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م أسلم روحه
الطاهرة لبارئها ورجعت إلى ربها راضية مرضية ، فاهتمت ببغداد لموته ، وحضر تشييع جنازته
الوالي والشير ، واحتشد آلاف من الأشراف والأعيان ورجال العلم والفضل والأدب ،
ودفن في مدرسته المشهورة بالمدرسة السلطانية .

(١) إن الشاعر جميل صدي الزهاوي ضمن أشعار والده هذه في قصيدته طويقة ، يقول بعد البيت الرابع :

كل شيء مع الجديدين يعني ثم يبقى جلال ربنا فتعالى (كذا)

محمد فيضي الزهاوي مفتي بغداد

مات المفتي وهو تقي فقي زاهد عابد ورع غيور على العلم والعلماء ، وورثاه كثير من الأدياء والفضلاء ؛ منهم الوزير (سري باشا) في مجموعة تسمى (نطقلة مجموعة حسني) يهوي مجموعة الخطب ، ومنهم السيد أحمد الرازي الواعظ المشهور بابي الحلق الذهب ، ومنهم السيد عبيد الوهاب أفندي الفسائب ، ومنهم العالم السيد عرفان أفندي المدرس بمدينة السلجانية

محمد الخال